في التربية الديمقراطية

الحكم الذاتي في المدرسة(*)

للأستاذ السيد يعقوب بكر

سوف لا نعرض في هذا البحث للتجارب التي أُجريت في هذه المسألة ؛ فإن هذه التجارب كثيرة كثرة لا نستطيع معها حصرها في بحث مثل هذا البحث ؛ وهي كذلك ذات صبغة بيئيّة إن صحّ هذا التعبير ؛ فهناك تجارب إنجليزية وتجارب أمريكية وتجارب أسترالية وتجارب فرنسية ، وطبيعي أن هذه التجارب لا تهمنا كمصريين لهم بيئتهم الخاصة وتعليمهم الخاص الذي توحي به هذه البيئة ؛ هذا إلى أن من هذه التجارب ما كان مسرحه المدرسة الابتدائية وما كان مسرحه المدرسة الثانوية وما كان مسرحه الجامعة ، وواضح أن هذه التجارب لا تصلح لمدارسنا وجامعاتنا لسبب بسيط جدًّا وهو أن مدارسنا وجامعاتنا تختلف عن تلك المدارس والجامعات الأجنبية التي جعلت مسارح تُجرى عليها تجارب الحكم الذاتي ؛ كذلك أُجريت تجارب في الحكم الذاتي على التلاميذ الذين لم يبلغوا سن البلوغ والمراهقة preadolescents وعلى الطلبة الذين بلغوا هذه السن adolescents ، وهنا أيضاً لا نستطيع تطبيق هذه التجارب على من لم يبلغ هذه السن من تلاميذنا وعلى من بلغها لسبب بسيط جدًّا أيضاً ، وهو أن هؤلاء يختلفون اختلافاً كبيراً عن نظرائهم في البلاد الغربية .

وإذن فلن نعرض لهذه التجارب التي أُجريت في الحكم الذاتي . وإنما سنعرض فقط للمبادئ العامة التي تسيطر على هذا الموضوع .

* * *

وأول ما نفعله في هذا الصدد أن نبين مكان الحكم الذاتي من التأديب discipline .

فنحن نعرف أن الأستاذ مكمان McMunn يقسم تطور التأديب من حيث البعد عن الحرية أو القرب منها إلى ثلاث مراحل متتابعة : مرحلة الإرهاب Phlebotomism ، ومرحلة التأثير بالشخصية Impressionism ، ومرحلة التحرير Emancipationism

في المرحلة الأولى كان المعول على القوة وحدها ، وكانت العصا هي أداة التفاهم الوحيدة بين المعلم والتلميذ

وفي المرحلة الثانية — وهي مرحلة انتقال من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثالثة — هذب المربون من حاشيتهم ورققوا من جفوتهم وإن لم يزودوا تلاميذهم بعد بالحرية الكاملة التي يتطلعون إليها والتي هي في الحق من حقهم

أما المرحلة الثالثة ؛ فهي التي تمثلها المدرسة الحديثة في التربية وهذه المدرسة ترمي إلى تزويد التلميذ بحرية خالصة من كل قيد ؛ ويجب أن تكون حرية التلميذ هذه إيجابية لا سلبية ، فيجب — كما يقول السير روبرت بادن باول — أن يشجع التلميذ على أن يعمل ما يحب كما يحب وإن أدى به هذا إلى الخطأ ، فبهذه الطريقة وحدها يمكنه أن يكتسب خبرة في هذه الحياة

والأستاذ مالك مان McMunn يرفض نوع التأديب الذي تضمنته المرحلة الثانية ، ولكن الدكتور الكورث براون E. Elkworth Brown لا يقره على هذا الرفض

والسير جون آدمز يخرج من اعتباره النوع الأول من التأديب ؛ ويترك النوع الثاني لمحك الحياة يظهر ما فيه من زيف أو صلاح ؛ وينظر في النوع الثالث فيرى أن مفهومه يقتضي من المعلم أن يكظم شخصيته وأن يلفها في مدارج النسيان ، فيقول إن هذا غير ممكن الحدوث ، فشخصية المعلم تظهر بالرغم منه وتترك أثرها في التلاميذ ، وهو لا يستطيع بحال ما أن يخلّص ما يلقيه على تلاميذه من أصباغ شخصيته . ويزيد السير جون آدمز على ذلك فيقول إن دعاة هذا المذهب الجديد يعترفون بصحة ما يقول

والذي نقصد إليه من كل هذا هو أن نقول إن الحكم الذاتي مظهر من مظاهر المدرسة الحديثة في التربية

(*) Self-Government in Schools

وهنا يحسن أن نتحدث قليلاً عن تاريخ المسألة —

فليس من شك في أن النظام يجب أن يتوفر فى التعليم المدرسى حتى يمكن لهذا التعليم أن يحقق الغاية المقصودة منه . لذلك كان النظام فى المدرسة أمراً على جانب كبير من الأهمية فى نظر الجميع . ومن ثمَّ أخذت المدرسة تهدف إلى أن تبعث فى جوها نظاماً مباشراً immediate orderliness ، فما أدّى فى كثير من الأحيان إلى إهمال الغرض التربوى المقصود تحقيقه عن طريق النظام . ولكن ازدياد الاهتمام بالأفراد ولا سيما الأطفال ، ومطالبة المدرسة بإخراج تلاميذ قادرين على أن يشاركوا فى التعاون الاجتماعى فى هذه الحياة ، وتسلط عليم نفس صحيح على المدارس ، كل هذا دعا إلى ترك هذا النوع من التأديب الذى لا يهدف إلا إلى مجرد النظام إلى نوع من التأديب آخر يتحقق من ورائه نمو الشخصية والتعاون الاجتماعى الثابت فى المدرسة

وقد تجلت تلك النزعة فى أمريكا فى عدة محاولات ترى إلى زيادة حرية الأطفال ومسئوليتهم فى مباشرة نواحى نشاطهم فى الفصل وفى خارج الفصل . ولقد ظهر أثر هذه النزعة أول ما ظهر فى الكليات والجامعات فيما يُعبر عنه باسم نظام الشرف honor system ثم ظهر بعد ذلك فى الحكم الذاتى فى المدارس العالية high schools ، وأخيراً ظهر فى المدارس الأولية

* * *

على أنه يحسن بنا هنا وقد أشرنا إلى نظام الشرف فى معرض كلامنا الوجيز عن تاريخ الحكم الذاتي أن نتحدث بإيجاز شديد عن الفرق بين هذين النظامين كما هما فى أمريكا . فنقول إن وجود نظام الشرف فى المدارس العالية يرجع إلى أنه لما كان طلبة هذه المدارس يتمتعون من قديم بقسط وافر من الحرية فى مباشرة وجوه نشاطهم المختلفة فى داخل هذه المدارس وفى خارجها ، فإن المدرسين والمباشرين لأمور هذه المدارس قد وصلوا هذه الحرية التى يتمتع بها الطلبة بنظام الامتحان وجعلوها تنفذ إليه لتدير أمره . وكان الدافع لهم على ذلك أنهم لمسوا صعوبة التوفيق بين كبح نزعة الغش فى الامتحان والعمل — فى نفس الوقت — على خلق اتجاهات صحيحة وعادات صحيحة فى نفوس الطلبة

هذا عن نظام الشرف . أما الحكم الذاتى فى المدارس غير العالية فقد دفع إلى اصطناعه غرضان هما بدون شك أوسع مجالاً من الغرض الذى دفع إلى اصطناع نظام الشرف : فالغرض الأول هو إيجاد وسيلة لتعليم علم الحكم المدنى civics تكون أكثر موضوعية وإيجابية ، والغرض الثانى هو العمل على أن تنمّى حكومة المدرسة الروح الاجتماعية عند كل طالب .

فهذا هو الفرق بين النظامين .

على أن هناك نظاماً آخر يحسن أن نتحدث قليلاً عما بينه وبين نظام الحكم الذاتى من فروق ، ونعنى بهذا النظام نظام العُرفاء prefect system . فبين هذا النظام ونظام الحكم الذاتى ثلاثة فروق رئيسية : فالفرق الأول يتلخص فى أنه فى نظام العرفاء يخوَّل السلطة عددٌ قليل من التلاميذ كبار السن بينما أن السلطة فى نظام الحكم الذاتى يخوَّلها التلاميذ جماعة ، والفرق الثانى يتلخص فى أن أعمال العرفاء prefects تنفيذية أكثر منها تشريعية ؛ فنظم القوانين التى ينفذونها ليست من تشريعهم . والفرق الثالث يتلخص فى أن هؤلاء العرفاء يختارون من قبل ناظر المدرسة ويكونون مسئولين أمامه بدلاً من أن يكونوا نائبين عن الجماعة .

وهنا يحسن بك أن تسألنى عن كنه الحكم الذاتي لأقول لك إنه تخويل جماعة من التلاميذ سلطة كاملة لمباشرة شئون حياتهم المدرسية كلها أو بعضها .

وهذا الحكم الذاتى لم يصطنع عبثاً ، بل لتحقيق أغراض يُرجى تحقيقها من ورائه .

فمن هذه الأغراض تنمية القدرة على التعاون co-operation ونحن نعرف أن للتعاون أهميته العظيمة فى الدول الديمقراطية ، بل وفى ذلك المحيط الفسيح الذى نسميه بالمجتمع الكبير Society Great والذى نحن جميعاً أبعاض منه . وإن المجتمع الحديث

مدين بتقدمه بل وباستمرار وجوده لهذا التعاون الذى يربط بين أفراده بعضهم وبعض .

ومن هذه الأغراض تدريب التلاميذ تدريباً عملياً على أن يكونوا مواطنين مستنيرين ، فإن دروس علم الحكم المدنى لا يمكن أن تغنى هذا التدريب العملى بحال ما . فالكتب لا تستطيع بحال ما أن تطلعنا على دقائق آلة العمل الحكومية أو على الطريقة التى تدير بها الأعمال ، وإنما نطّلع على كل هذا بالتجربة وبالتجربة فقط .

وهناك غرض ثالث هو فى الحقيقة غرض علاجى . وبيان ذلك أن هناك أطفالاً ينزعون إلى أن يشعروا المجتمع بوجودهم وإلى أن يحملوه على الاعتراف بأهمية هذا الوجود ، فإذا لم يجد نزوعهم هذا متنفساً يخرج منه إلى عالم الواقع والحقيقة فإنه يتحول إلى عقدة نفسية تحمل هؤلاء الأطفال على أن يقفوا من قوانين المجتمع موقف العداء ، وبذلك تكون حياتهم العاطفية صراعاً مشتجراً بينهم وبين أولى الأمر . وعلى ذلك فيجب أن يوحى إلى هؤلاء المتمردين على المجتمع أن القانون ليس جماعاً من أوامر ونواه تملى عليهم وتُفرض ، وإنما هو وسيلة تصطنع لتحقيق مثل عليا يطمح إليها أفراد المجتمع ويشاركونهم هم فى هذا الطموح . وليس كالحكم الذاتى وسيلة لغرس هذا فى نفوس هؤلاء المتمرّدين

فهذه أغراض ثلاثة رئيسية يرجى تحقيقها عن طريق الحكم الذاتى . وهناك أغراض أخرى ثانوية يصح أن نذكر بعضها . فمن هذه الأغراض الثانوية تدريب التلاميذ على ضبط النفس ، وذلك لأن فى تدبيرهم لأمورهم المدرسية تدريباً لهم على ضبط أمورهم النفسية ؛ ولأن فى تدبيرهم لأمورهم المدرسية تقوية لعزيمتهم وشحذا لإرادتهم ، ولا بد لضبط النفس من قوة فى العزم ومضاء فى الإرادة

ومن هذه الأغراض الثانوية أيضاً تقوية إحساس التلاميذ بقيمة النظام وأهميته . ومنها كذلك تدريب التلاميذ على سياسة الغير .

(للحديث بقية) السيد يعقوب بكر

من أزهار الشر

لشارل بودلير

عروج

ها أنتِ يا روحى ترفرفين هفافةً فوق الوهاد والغدران ، والجبال والغابات ، والسحب والبحار ، وفيما وراء الشمس والأثير ، والأفلاك النائية المرصعة بالنجوم .

وإنك لتعبرين الفضاء العميق ، مرحةً فى شهوة عارمة يعجز عنها البيان ، كسابح ماهر غشيه الذهول فى لجة الماء .

فلتحلقى بعيداً ، بعيداً ، عن الجيف المنتنة . واصعدى إلى الهواء الأعلى ، لتتطهرى من أدرانها ، واحتسى النار الساطعة التى تغمر الآفاق التألقة ، كخمر إلهية صافية .

طوبى لمن يستطيع أن ينطلق بجناح قوى إلى السموات المشرقة الساجية من وراء الهموم والآلام العريضة التى تنوء بأعبائها الحياة القاتمة !

طوبى لمن كانت خواطره كالقنابر تطير عند الصباح إلى السماء حرة طليقة !

طوبى لمن رنّق[1] فوق الحياة ، وأدرك بلا عناء لغة الزهور والكائنات الصامتة !

ترجمة

عثمان على حسن

(١) رنق الطائر حلق دون أن يحرك جناحيه

حكم فى الجنحة رقم ٨٤ عسكرية الجمالية سنة ١٩٤٣ بحبس محمد جرجس توفيق ثلاثة شهور مع الشغل وتغريمه مائة جنيه وغلق المحل ثلاثة أيام لعرضه للبيع زيتاً بأزيد من التسعيرة

حكم فى الجنحة رقم ٤٧ عسكرية بولاق سنة ١٩٤٣ بحبس رزق مرزوق لمدة ثلاثة شهور مع الشغل وتغريمه مائة جنيه وغلق المحل ثلاثة أيام لامتناعه عن بيع أرز وزيت بالسعر المحدد

حكم فى الجنحة رقم ٩٠ عسكرية مصر الجديدة سنة ١٩٤٣ بحبس حسن أحمد عبد الفتاح ستة شهور مع الشغل وتغريمه خمسين جنيها وجلده عشرين جلدة والغلق لمدة أربعة أيام لبيعه لحماً بتلو بأزيد من التسعيرة